الإسلام والتفرقة العنصرية

للدكتور
عبد العزيز كامل
وزير الأوقاف وشئون الأزهر

بحث أصدرته هيئة اليونسكو
فى سلسلة « المسألة العنصرية
والفكر الحديث » باللغات
الإنجليزية والفرنسية فى عام ١٩٧٠

التفرقة العنصرية والفكر الحديث

الإسلام والتفرقة العنصرية

صدر من هذه السلسلة

(١) الكنيسة الكاثوليكية والتفرقة العنصرية
بقلم : صاحب الغبطة الأب يڤير . م كونجار ، عام ١٩٥٣ (صدرت الطبعة الثالثة منه عام ١٩٦٦)

(٢) الحركة المسكونية والتفرقة العنصرية ، عام ١٩٥٤
بقلم : الدكتور و . ا. ويسرت هوفت

(٣) البوذية والتفرقة العنصرية ، عام ١٩٥٨
بقلم : ج . ب . ملالا سيكيرا ، و ك . ن . جايا تيلليك

ومن سلسلة التفرقة العنصرية والعلم الحديث

(١) مجموعة من أول عشرة كتيبات فى هذه السلسلة كانت قد صدرت أولا بين عامى ١٩٥١ و ١٩٥٣ ، عام ١٩٥٦

(٢) العلاقات العنصرية والصحة العقلية
بقلم : ميرى جاهودا ، عام ١٩٦٠ (طبعة ثانية عام ١٩٦١)

ومن سلسلة التفرقة العنصرية والمجتمع

(١) العنصرية والطبقية فى الريف البرازيلى
بقلم : تشارلند داجلى ، عام ١٩٥٢ (طبعة ثانية عام ١٩٦٣)

(٢) المساواة العنصرية والقانون
بقلم : مورو بيرجر ، عام ١٩٥٤

(٣) المساواة فى الحقوق بين الأجناس والقوميات فى الاتحاد السوفييتى ، عام ١٩٦١ (طبعة ثانية عام ١٩٦٢)
بقلم : إ . ب تساميريان ، و س . ل . رونين

(٤) الدفاع عن حقوق الإنسان فى أمريكا اللاتينية (من القرن السادس عشر للقرن الثامن عشر) ، عام ١٩٦٤
بقلم : سيلڤيو زاڤالا

مطابع دار المعارف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

عقب صدور سلسلة « التفرقة العنصرية والعلم الحديث» التى قصد بها سرد موجز لوجهات نظر علماء الإنسان والوراثة والاجتماع ، قررت اليونسكو إصدار سلسلة « التفرقة العنصرية والفكر الحديث » متناولة موقف الديانات والمذاهب الفلسفية الكبرى من هذه المشكلة .

ولا تتطلب مشاكل التحيز العنصرى والتفرقة العنصرية فحصاً علمياً فحسب . وإنه لإغراق فى التفاؤل أن نظن أن المنازعات العنصرية وما ينجم عنها من مآسٍ ، من الممكن وضع حدٍّ لها بمجرد تعرف الجماهير على وجهات نظر العلماء فى العصر الحديث ، فهناك اعتبارات أخرى معنوية وفكرية من الممكن أن تؤثر وتعدل مفاهيم الإنسان وسلوكه ، بل هى تقوم بهذا فعلا . وهذا ما يضفى أهمية على موقف الديانات والنظم الفلسفية تجاه تباين الأجناس الإنسانية وعدم المساواة فى معاملة الكائنات البشرية .

ويصدر هذا الكتيب عن « الإسلام والتفرقة العنصرية » فى أعقاب سلسلة من نوعه عالجت وجهات نظر الكنيسة الكاثوليكية والحركة المسكونية والبوذية . وقام بتأليفه الدكتور عبد العزيز عبد القادر كامل الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ووزير الأوقاف وشئون الأزهر بالجمهورية العربية المتحدة .

مقدمة

منذ سنوات ، كنت فى طريقى من مكة إلى المدينة ، بعد أداء فريضة الحج ، وهى الفريضة التى يجتمع لأدائها كل عام أكثر من مليون مسلم ، يأتون من مشارق الأرض ومغاربها ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، يقيمون شعائر واحدة ويلبسون ثياباً خلت من الزينة ، لا تعرف فيهم غنياً من فقير ، مستجيبين لنداء الله بزيارة بيته العتيق .

واقتربت السيارة من المدينة وبدت مآذن المسجد النبوى وقبته الخضراء ، ودخلنا المدينة متجهين إلى المسجد لأداء الصلاة . ودارت عينى فى زخارف المسجد ، واستوقفتنى أسماء الصحابة المنقوشة على جدران الصحن الخلفى : أبوعبيدة عامر بن الجراح ، سعد بن أبى وقاص ، عبد الله بن مسعود ، عبد الله بن عمر ... وهؤلاء من قبائل عربية . ثم تابعت القراءة : بلال ابن رباح وهو حبشى ، سلمان وهو فارسى ، صهيب بن سنان وهو رومى أو عاش فى بلاد الروم ، وإلى جوار كل اسم من هذه الأسماء نقرأ الدعاء الإسلامى المأثور : رضى الله عنه .

هذه باقة من الورود الإنسانية ترجع إلى الشعوب الكبرى الموجودة وقت النبوة حول الجزيرة العربية ، عاشت فى الجزيرة العربية ، واجتذبها الإسلام بما يحمل من عقائد ونظم . وتآخت برغم اختلاف اللون ، وتمر العصور وتظل هذه الأسماء محاطة بالتكريم من المسلمين وكل محب للإنسانية .

صورة من الإخاء تمتد عبر التاريخ ، وصورة من الواقع الحى نجدها في موسم الحج .. ولها نظائرها الكثيرة فى العالم الإسلامى .. فأنت إذا زرت حى الأزهر بالقاهرة، ستشاهد وافدين من كل أقطار الأرض ولكل شعب أو وطن رواق يجمع أبناءه . وهذه الأروقة ظلت عبر التاريخ تمثل الإخاء الإنسانى الذى يجتمع من أجل أشرف غاية وهى : العلم . وما تجده فى الأزهر — أقدم الجامعات الإسلامية — ستجده فى الجامعات الأخرى الممتدة من أقصى المغرب إلى شواطئ المحيط الهادى ومنارات العلم التى ارتفعت فى قلب أفريقية والجامعات الإسلامية التى كانت فى أوربا .

وكما تجد هذا فى دور العلم ، فإنك واجده فى الحياة اليومية ، التى تعتبر المسجد والجامعة الصورة النموذجية لما يجب أن تكون عليه حياة الناس والتى يعبر عنها أصدق تعبير قول النبى (ﷺ) فى حجة الوداع . « أيها الناس ، إن ربكم واحد وأباكم واحد . لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا أسود على أحمر ولا أحمر على أسود إلا التقوى » [1] .

فلنحاول أن نعرض الأصول التى أكدت كرامة الإنسان والإخاء الإنسانى الشامل فى الإسلام ، إخاء يرتفع فوق عصبية الجنس واللون والطبقة .

(١) الهيثمى : مجمع الزوائد ٣ :٢٦٦ .

١

الإسلام والعلم

من القضايا الكبرى التي نعرفها فى تاريخ العلم علاقته بالدين. وكانت هذه العلاقة فى بعض الأقطار والعصور علاقة سلبية، وأحياناً عدائية. ومن أجل ذلك كان الاتجاه إلى حل مشكلة التفرقة العنصرية يسلك السبيلين فى الإقناع: سبيل العلم وسبيل الدين، ومن بعد ذلك التطبيق العملى فى الحياة. وليس هناك من شك فى أن التعاون العريض بين الدين والعلم يقدم أكبر العون على حل هذه المشكلة ومن هنا تبرز أهمية موقف الإسلام — كدين — من العلم. وهو موقف سنرى مدى إيجابيته.

١ — فأول آيات أنزلها الله على رسوله فى القرآن هى قوله تعالى: «اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم» [العلق ١ — ٥].

فالقراءة باسم الرب الخالق، الذى بدأ خلق الإنسان من علق لا تكاد تدركه الأبصار ثم رباه حتى ارتفع به إلى مستويات التعليم التى لم يكن يعلمها. وهذه الرحلة الطويلة، رحلة مشتركة بين الناس جميعاً، لا يختص بها واحد عن واحد.

القراءة إذن باسم الله، ولا ينبغى أن تكون باسم الأهواء والأحقاد والعصبية اللونية أو العنصرية.. أى أن العلم فى الإسلام له من القداسة ما ينبغى أن يرتفع به الإنسان عن مستوى يستخدمه فيه فى أى غرض

يتعارض مع الحق . والحق من أسماء الله فى الإسلام .

ونحن قد رأينا نماذج كثيرة ، مما نشرته هيئة اليونسكو ، توضح فيها كيف أنه فى بعض العصور والأقطار كان العلم فى خدمة العنصرية [١] بينما مهمته الحقيقية أن يكون ضوءاً كاشفاً للقضاء على العقبات التى تحول دون الإخاء الإنسانى .

٢ — وكما كرم الله العلم فى الإسلام فقد كرم أدواته . فأول شىء أقسم به الله فى القرآن تكريماً له كان القلم . وذلك فى قوله تعالى : « ن ، والقلم وما يسطرون » [القلم : ١ — ٢] وهو يعقب على ذكر القلم بما « يسطرون » فكأن القسم التالى بالكتابة نفسها . وجاء هذا القسم فى القرآن سابقاً — تاريخيا — للقسم حتى بالأجرام الكبرى المضيئة فى الكون كالشمس والقمر والنجوم .. تقديماً لنور العلم على نور الكواكب .

٣ — ويذكر القرآن الكريم مادة العلم ومشتقاته فى القرآن نحواً من ثمانمائة وخمسين مرة منسوباً إلى الله ومنسوباً إلى الرسل وإلى الناس . ويعلم رسوله أن يدعوه فيقول : « وقل رب زدنى علماً » . ويعقب الإمام القرطبى على مكانة العلم بقوله : « لو كان هناك شىء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه (ﷺ) أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيد من العلم » [٢] .

من أجل ذلك يضع الرسول (ﷺ) مداد العلماء فى مرتبة واحدة

---

(١) جوان كوماس : خرافات عن الجنس (١٩٥١) .
Juan Comas Racial Myths 1951.

(٢) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن (٤ : ٤١) .

مع دماء الشهداء[١] ويدعو الناس إلى التأمل فى الكون وتفهم أسراره « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » [آل عمران ١٩٠ — ١٩١] .

ولا يقتصر على التأمل فى المكان الذى يعيش فيه الإنسان ، بل يدعوه إلى الحركة والبحث عن المعرفة فى الأقطار الأخرى وفى التاريخ الإنسانى : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة . إن الله على كل شىء قدير » [العنكبوت : ٢٠] وقوله تعالى : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » : آل عمران : [١٣٧ — ١٣٨] .

بل إنه ليجعل الكون كله بسماواته وأرضه وظاهراته الطبيعية والبشرية مادة للفكر والإيمان معاً فيقول : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » [البقرة : ١٦٤] ويقول : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ،

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله (١ : ٣٠ — ٣١) .

قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » [الأنعام : ٩٧ — ٩٩] .

ووسط هذا الحشد الضخم من الظواهر الطبيعية والبشرية التى يعتبرها مادة فكر وإيمان ودليلاً على قدرة الله يقول : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » [الروم : ٢٢] .

فمن ناحيتى العقيدة والعلم لا ينظر الإسلام إلى اختلاف اللون إلا كما ينظر إلى اختلاف الألسنة واللغات وبقية الظاهرات الطبيعية والبشرية الأخرى فى هذا الكون الكبير . . مجرد مظهر للقدرة الإلهية « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » [يس : ٣٦] .

الإسلام والمنهج العلمى :

هذه المكانة للعلم فى الإسلام وبحث الظاهرات — ومن بينها اختلافات اللون — على أساس موضوعى ، انعكست منهجاً علمياً له أصالته وامتداده فى الفكر الإسلامى الجدير بحمل هذا الاسم .

فالمنهج العلمى الذى ينسب عادة إلى فرانسس بيكون (١٥٦١—١٦٢٦) قد ثبت أن عدداً من العلماء المسلمين كابن الهيثم وغيره طبقوه قبل

بيكون بقرون : كانوا يجمعون الحقائق وفق خطة محددة ثم يستقرئونها على أساس منطقى ، حتى تخرج الأحكام متمشية مع المنطق والواقع .

وقد جاء فى الرسالة السابعة من رسائل إخوان الصفا (القرن الرابع الهجرى : الحادى عشر الميلادى) ، هذا الدستور المحكم للبحث العلمى وطريقته ومناهجه الذى ينحصر فى تسعة أحكام أو أسئلة وهى ، (١) هل هو : وهو البحث عن وجود الشىء من عدمه ، (٢) ما هو : يبحث عن حقيقة الشىء ، (٣) كم هو : المقدار ، (٤) كيف هو : الصفات . (٥) أى شىء هو (٦) أين هو ، (٧) متى هو ، (٨) لم هو ، (٩) من هو[١] .

وقد تحقق علماء الإسلام من أن الأسلوب العقلى البعيد عن التجربة لا يمكن أن يوصل إلى الحقيقة ومن هنا ربطوا بين المنهجين العقلى والتجريبى . وانعكس هذا عناية باختراع الأجهزة العلمية . ووضع نتائج البحوث السابقة على محك البحث التجريبى . وفى هذا هم يسيرون على قول الله الداعى إلى التثبيت « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » [الإسراء : ٣٦] .

وفى هذا المنهج يقول جابر بن حيان (١٢٠ – ٢١٠ هـ ٧٣٦–٨٢٥م) وهو يوصى تلاميذه بالاهتمام بالتجربة . وعدم التعويل إلا عليها مع التدقيق فى الملاحظة والاحتياط وعدم التسرع فى الاستنتاج « وأول واجب

---

(١) رسائل إخوان الصفا : الرسالة السابعة من القسم الرياضى فى (الصنائع العلمية والغرض منها) ، فصل فى العلم والمعلوم والتعلم والتعليم وأوجه السؤال .

أن تعمل وتجرى التجارب ، لأن من لا يعمل ويجرى التجارب لا يصل إلى أدنى مراتب الإتقان ، فعليك يابنى بالتجربة لتصل إلى المعرفة . . وما افتخر العلماء بكثرة العقاقير ولكن بجودة التدبير ، فعليك بالرفق والتأنى وترك العجلة ، واقتف أثر الطبيعة فيما تريده من كل شىء طبيعى [١] .

فالإسلام يدعو إلى منهجية البحث وموضوعيته ، وهو يحترم نتائج هذه البحوث ويعتبرها مصدراً رئيسياً من مصادر المعرفة ويرتفع بها إلى اعتبارها من آيات الله فيقول : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » [فصلت : ٥٣] ومن هذه الزاوية هو يحترم فى قضية العنصرية ما يثبته البحث الموضوعى المنهجى .

---

(١) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٤٩ .

٢

الإسلام والمسئولية

والخطورة الكبيرة فى قضية العنصرية هى أنها تجعل الإنسان مسئولاً عن ظاهرة ليست من صنع يده : لماذا أنا بهذا اللون أو ذاك ؟

والإسلام لا يبدأ قضية المساواة الإنسانية من مستوى البشرة وإنما هو يبدؤها — كدين — من مستوى الخلق والوجود نفسه .

يقول الله تعالى : « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه . ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة أخرى ، وما كنا معذبين حتّى نبعث رسولاً » [الإسراء : ١٥] .

الإسلام يؤمن بإله واحد . وهذا التوحيد هو الذى تصدر عنه الوحدة الضرورية الحتمية لجميع البشر . وحدة لا أحمل فيها إلا مسئولية عملى ، وأتساوى فيها مع كل إنسان آخر عبر التاريخ وعلى امتداد الأرض . ومن هذه الزاوية ، تأتى نظرة الإسلام إلى خلق الإنسان وما يرتبط بهذا الخلق من مسئوليات وتبعات .

قصة الخلق ومسئولية الإنسان :

وفى قصة الخلق فى الإسلام تجربتان واضحتان :

١ — الأولى قصة كائن — هو آدم — خلقه الله من مادة هذه الأرض ثم نفخ فيه من روحه فاستوى بشراً سويـًّا . يقول الله تعالى:

« إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » . هذا الأب الأول علمه الله الأسماء وأعطاه علماً لم يعطه للملائكته وسأل ربنا آدم فيما علمه إياه فأجاب أمام الملائكة وسجدوا له بأمر الله . وفى هذا نقرأ قول الله : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال لهم : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » [البقرة : ٣١–٣٢] وفى آية أخرى : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين » [الحجر : ٣٠ — ٣١] .

هذه إذن تجربة ناجحة : تعليم واستيعاب وبرهنة عملية على هذا الاستيعاب ، تجربة آدم الأولى كما يصورها القرآن الكريم كانت نجاحاً جاء من بعده سكنى الجنة على أساس من إلزام أوامر الله والبعد عن نواهيه .

٢ — تأتى بعد هذا تجربة ثانية هى أكله من الشجرة التى حرمها الله عليه . وتصوير القرآن الكريم لهذه التجربة الثانية يستحق الوقوف من عدة اعتبارات :

(ا) أن الأمر الإلهى لم يكن موجهاً إلى آدم وحده وإنما إلى آدم وزوجته معاً . وأن الشيطان لم يقنع حواء ، وهى بدورها أقنعت آدم بالأكل من الشجرة وإنما كان الإقناع للاثنين معاً فهما يتحملان مسئولية عملهما ، وفى هذا نقرأ قول الله متحدثاً عن آدم وزوجته معاً :

« ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور » [الأعراف ١٩ — ٢٢] .

(ب) أن الدافع القوى الذى دفعهما إلى الأكل كان الطموح الذى يتعدى به الإنسان حدود الأمر الإلهى . لقد رغبا فى أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين .

لقد كان الموقف صراعاً فى نفسيهما بين صريح الأمر ، وبين الطموح الذى يتعدى ذلك الأمر . لقد أكرمهما الله معنوياً بالعلم ومادياً بالجنة فتطلعت الأنفس إلى ما ليس من طبيعة الإنسان . .

ولا تزال هذه قضية عميقة الأثر فى الحياة البشرية : التزام الحدود أو الخروج عنها ، محاولة الإنسان الصعود إلى ما فوق البشرية بما يحمل هذا من التنكر لبشريته القائمة .

أليس هذا هو جوهر القضية العنصرية : أن يتنكر الإنسان — بجوهر الانسان فى نفسه أو غيره — ويحاول أن يكون هو شيئاً آخر ... فإذا لم يستطع حاول الهبوط بغيره ليكون أقل منه ؟ وهو فى دنيانا يحاول أن يتذرع بالوسائل التى يبرهن بها على التفرقة فلا يجد أمامه أوضح من اللون .

ومن هنا كان استخدام القرآن الكريم لهذا التعبير البعيد الغور « فدلاهما بغرور » ذلك الغرور الإنسانى الذى حاولا به الصعود إلى أعلى كان طريقه إلى الهبوط إلى أسفل .

علاقاتنا بالقصة :

ونتابع القصة فى القرآن فنقرأ توبة الأبوين : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» [سورة الأعراف : ٢٣]

لقد كانت هذه هى المدرسة الأولى للإنسانية . مدرسة فيها تجربتان من نجاح وفشل ، وتمتد يد الله الحانية لترفع الأبوين من قسوة التجربة ونقرأ قول الله : « وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » [طه : ١٢١ — ١٢٢] .

إذن فالقصة الأولى قد انتهت : نجاح وخطأ وتوبة وقبول توبة . وإخبار من الله للأب الأول وزوجه بعد أن مرّا فى التجربتين ليبدأ قصة طويلة يكون فيها آدم « خليفة الله فى أرضه » . . « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » . . خليفة برغم الخطأ الذى حدث ، والأخطاء التى ستحدث ، نتيجة لتجارب الإنسانية فى سيرها الطويل ، ومدى تمسكها أو ابتعادها عن شريعة الله القائمة على الحق والعدل والرحمة . .

فقصة الإنسان على الأرض — فى تصور الإسلام — ليست عقوبة ولا قصاصاً . وإنما — كإنسان — لا أتحمل فيها نتيجة خطأ آدم ، كما أن آدم لم يتحمل نتيجة إغواء زوجه ؛ وبناء على ذلك فإن كل إنسان منا يفتح مع ربه ومع المجتمع صحيفة جديدة بيضاء ليس فيها — فى تصوير الإسلام — خطيئة ، وليست فى حاجة إلى فداء .

الأب الأول وزوجه لهما قصة مع الله مستقلة عن قصتى كإنسان ،

إلا من جانب واحد هو مدى استفادتى من التجربتين اللتين مرا فيها .. وهاتان التجربتان تمثلان صراعاً مستمراً فى النفس الإنسانية بين الالتزام والطغيان . . بين العدل والظلم « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا » .

ولقد كرر الله فى القرآن الكريم قبول توبة آدم أكثر من مرة :

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم »
[البقرة : ٣٧] .

« وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »
[طه : ١٢١ — ١٢٢] .

المسئولية الفردية :

وكثير من الآيات التى تؤكد المسئولية الفردية ، والتى تضع الناس جميعاً — سواء تعاقبوا أو تعاصروا — تضعهم جميعاً على مستوى المسئولية الموحد أمام الله وأمام المجتمع . ولنقرأ فى هذا قول الله وهو يدعو إلى البر بالناس :

١ — أفرأيت الذى تولى ، وأعطى قليلا وأكدى ، أعنده علم الغيب فهو يرى ، أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى .
[النجم : ٣٣ — ٤٢] .

٢ — وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً .
[الإسراء : ١٣ — ١٤] .

٣ — ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً .
وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين .
[الأنبياء : ٤٧] .

٤ — يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة
أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير .
[لقمان : ١٦] .

٣

الإنسان والبيئة الطبيعية

حياة الإنسان — على الأرض — كما يصور القرآن الكريم ليست عقوبة، وإنما مهمة نبيلة وصفها الله بقوله : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » [البقرة: ٣٥] وهى حياة تتنازعها قوتان من امتثال أمر الله والطموح الذى يحاول به الإنسان أن يرتفع فوق ذاته ، ولا يخرج هذا — فى مضمونه — عن التنكر لإنسانيته . فى ذاته أو غيره .

ومن طبيعة هذه المهمة وهى « خلافة الله » أن تكون العلاقة بين الإنسان والميدان الذى يعمل فيه علاقة حب وخير .

فالقرآن الكريم ينص على أن الله قد خلق الكون لنا :

١ — هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً [البقرة: ٢٩] .

٢ — والأرض وضعها للأنام [الرحمن : ١٠] .

٣ — الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . [إبراهيم : ٣٢ — ٣٤] .

فكل ما حوله من هذا الكون الكبير إنما هو مسخر له ، والأرض أمامه ممتدة : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » [الملك : ١٥] .

بل إن القرآن ليجعل الإنسان جزءاً من مادة الأرض: « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » [نوح ١٧] . فالإنسان ليس قريباً عنها ولا مطروداً إليها . وهو يعيش عليها ثم يثوى فى جوفها « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » [طه : ٥٥] .

١ — ويعبر الرسول (ﷺ) عن هذا فيقول : « تمسحوا بالأرض ، فإنها بكم برة »[١] من أجل ذلك لا تقوم العلاقة فى الإسلام بين الإنسان والكون على أساس من العداوة والاستغلال الهدام والتخريب ، وإنما تقوم على أساس من استخراج خيراتها فى تآلف وتناغم ومودة .

٢ — ويمتد هذا الأساس من التآلف ليشمل مادة الأرض نفسها . فأبو بكر الصديق يقول فى وصيته ليزيد بن أبى سفيان وهو على رأس جيش متجه إلى الشام : « لا تقطع شجراً مثمراً ولا تخرب عامراً . . . ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنه »[٢] .

٣ — وهو ينهى عن تعذيب الحيوان فيقول: « عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار[٣] » .

والعبرة العميقة فى هذا أن الهرة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها إذا

(١) الطبرانى فى المعجم الصغير عن شيخه حملة بن محمد ص ٨٣ .

(٢) موطأ الإمام مالك تحقيق فؤاد عبد الباقى ٤٤٧ — ٤٤٨ وانظر أيضاً نيل الأوطار للشوكانى ٧ : ٢٤٨ — ٢٤٩

(٣) البخارى ٦ : ٢٥٤ — ٢٥٥ من رواية عبد الله بن عمر .

كانت حبيسة وتصرف الإنسان مع من هو أضعف منه هو أوضح دليل على أخلاقه . والإنسان يمكن أن يخشى من هو أقوى منه أو يجامل من هو فى مثل منزلته ، أما حقيقة أخلاقه فتبدو فى مثل هذا الموقف .

٤ — ويعطينا الحديث التالى مثالاً آخر للرحمة « بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج ، فإذا هو بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش فقال : لقد بلغ هذا الكلب الذى بلغ بى فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ، ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له » .

قالوا يا رسول الله : وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ .

قال : « فى كل كبد رطبة أجر »[1] .

٥ — حتى ما تأكله الطير من حقل يقول فيه الرسول : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة »[2] .

٦ — واعتبر الحاكم فى أرض الإسلام نفسه مسئولاً عن ماشيتها رعاية وتعبيد طريق ورفقاً بها فيقول عمر بن الخطاب الخليفة الراشد الثانى : « لو أن عناقاً (عنزا) ذهب بشاطئ العراق لأخذ بها عمر يوم القيامة »[3] .

ويحدد الخليفة عمر بن عبد العزيز ثقل الأحمال التى تحملها الإبل على شاطئ النيل . . يفعل هذا وهو فى الشام فيقول : « بلغنى أن

(١) البخارى ٣ : ١٤٦ — ١٤٧ من رواية أبى هريرة .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه عن جابر ٣ : ١١٨٨ — ١١٨٩ .
(٣) سيرة عمر لابن الجوزى ص ١١٠ ط صبيح بالقاهرة .

بمصر إبلاً نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابى هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل »[١] .

وانعكست هذه الرحمة على الحيوان فى أرض الإسلام فكانت هناك أوقاف مخصصة لإطعام الحيوانات الضالة وعلاجها ، وشراء الحبوب الغذائية للطيور وما زال هذا التقليد متبعاً حتى الآن فى الحرم المكى.. يشترى الناس القمح ويلقونه على أرض المسجد ليلتقطه الحمام الذى يعيش بأعداد كبيرة هناك آمناً على نفسه ، قريباً من الإنسان يعيش معه فى سلام .

الإسلام ينهى إذن عن حبس الحيوان وتعذيبه ، أو التلهى برؤية دمائه وصراعه ولا أود أن أذكر الكثير عن حب العربى للإبل والخيل ، لقد كان يطلق عليها الأسماء الرقيقة وينشد فيها الأشعار ، ويتغنى بصداقتها والوفاء المتبادل بينهما .

هذه صورة العلاقة بين الإنسان ومكونات البيئة الطبيعية : صخرية وجوية ونباتية وحيوانية ، تنبع من أساس واحد هو أن الله خالق الإنسان والوجود .. فهو – كإنسان – ابتدعته يد الله ، والدنيا أبدعتها يد الله . وهم جميعاً آيات من قدرته ، وأمم أمثالنا « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ، ثم إلى ربهم يحشرون » [الأنعام : ٣٨] .

وأن عمله فى الدنيا – امتثالا لأمر الله – لا يختلف من حيث دلالته على قدرة الله عن حركة الأكوان . وجودها سجود دائم لله ، يصوره

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص١٦٦ ط الرحمانية مصر ١٩٢٧ .

القرآن الكريم بقوله : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون » . [النور : ٤١]

والله يدعوه إلى التأمل فى هذا الكون ويستدل من هذا على وجود الله وقدرته فكل ما حوله مادة للإيمان :

١ — « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض « ربنا ما خلقت هذا باطلاً » ، سبحانك فقنا عذاب النار » . [آل عمران : ١٩٠ — ١٩١]

٢ — ويلفته إلى التأمل فى عالم النبات فيقول : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » [الأنعام: ٩٥ — ٩٩] .

٣ — ويلفته بعد هذا إلى التأمل فى عالم الحشرات فيقول :

« وأوْحى ربُّك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرْشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سُبلَ ربك ذُللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » [النحل: ٦٨ — ٦٩] .

٤ — ويلفته إلى التأمل فى عالم الحيوان: « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت» [الغاشية: ١٧] . « والأنعام خلقها لكم فيها دفْءٌ ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون » [النحل: ٥—٨] ، « وإن لكم فى الأنعام لعبرةً نسقيكم مما فى بطونه من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » [النحل: ٦٦] .

والتعقيب القرآنى على مكوّنات البيئة الطبيعية أنها : آيات لقوم يتفكرون ، ولقوم يسمعون ، ولقوم يعقلون، ولقوم يذكرون ، ولعلكم تشكرون ، ولعلكم تهتدون . تعقيبات كلها شكر لله ، ودعوة إلى العمل الصالح فى الدنيا .

أما الفروق التى بين هذه المكونات فى حجومها وألوانها ووظائفها فلا تعدو — فى نظر الإسلام — أن تكون أكثر من دليل على قدرة الله . . ونظرة الإسلام إلى الإنسان لا تختلف من هذه الزاوية عن نظرته إلى بقية مكونات الوجود .

٤

الإنسانية أسرة كبيرة

نفس واحدة :

فى القرآن الكريم نداءات من الله يوجهها إلى الإنسان كإنسان ، توضح له السبيل إلى حل قضاياه الكبرى . ومن أهم هذه القضايا نظرة الإنسان إلى جميع إخوانه فى الإنسانية .

وتأسيساً على عقيدة التوحيد فى الإسلام ، وهى جوهر الدين ، ينبغى أن تكون هناك وحدة فى الإنسانية . . . هذا ما قال به الإسلام وما انتهى إليه البحث العلمى ، وما ذهب إليه بيان هيئة اليونسكو عن قضية العنصرية .

ولنستمع إلى قول الله :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » [النساء : ١] .

فالخالق واحد ، والنفس الإنسانية واحدة ، ومن هذه النفس خلق الله زوجها ، ومن هذه الأسرة الأولى جاء الناس : رجالا كثيراً ونساء . ثم يأمرنا الله بعد هذا أن نتقى أمرين : الله ، والأرحام . والأرحام هنا دلالة على الصلة الإنسانية التى تربط الناس جميعاً بعضهم

ببعض ، مهما تناءت الديار ، وتعاقبت العصور ، واختلفت الألسنة والألوان ، وتباين الوضع الاقتصادى والاجتماعى . نحن مأمورون بأن نتقى الله فى أوامره ، والتطبيق الأولى لتقوى الله هو رعاية الإخاء الإنسانى الكبير ، الذى يعقب الله عليه بقوله: « إن الله كان عليكم رقيبا » .

الألسنة والألوان :

ونحن كمجتمع إنسانى كبير لم نحضر بدء الخلق . . ولم نر النفس الإنسانية الواحدة وإنما رأينا ألسنة مختلفة وألواناً متعددة ، فما موقف الإسلام من هذا الاختلاف ؟

إن نظرته إليه – كما سبق القول – لا تعدو أن تكون نظرته إلى كل ما فى الأنفس والآفاق من مجالات التباين . . وإذا كان حديثنا قد انصب من قبل على مكونات البيئة الطبيعية ، فقد كان هذا تمهيداً للحديث عن الإنسان . . خليفة الله فى أرضه ؛ ومن أجله سخر له ما فى السموات والأرض وذلل له السير فيها .

وهو يذكر اختلاف الألسنة والألوان وسط حشد من الظاهرات الطبيعية والبشرية ويعتبرها – جميعاً – أدلة على وجوده . ووضعها بهذه الصورة ، دون أن يفرد لها وحدها دراسة خاصة ، أعمق فى الدلالة على أنها مجرد ظاهرة كغيرها من الظاهرات ، تجمعها كلها نظرة واحدة من التأمل الذى يعمق الإيمان فى النفس ، ويدعوها إلى العمل القائم على الحب والرحمة .

وفى هذا يقول الله تعالى :

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيًّا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » [الروم : ١٧ — ٢٤] .

وحديث القرآن الكريم عن اختلاف الألسنة والألوان بين الناس، يماثل حديثه عن اختلاف الألوان فى آفاق البيئة الطبيعية . هومظهر لقدرة الله ، له فى النفوس قداسة واحترام ، وواجبنا حياله أن نعمل وفق أوامر الله ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وفى هذا يقول الله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » [فاطر ٢٧ — ٢٨] .

على أن الذى يستوقف النظر فى الآيتين : الأولى التى تخبرنا عن اختلاف

الألوان بين الناس ، والثانية عن اختلاف الألوان فى الغطاء الصخرى والنباتى وعالمى الحيوان والإنسان؛ أن الأولى تنتهى بقول الله : « إن فى ذلك لآيات للعالمين » ، والثانية بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

هنا نلمس ربطاً بين هذه الظاهرات وضرورة البحث العلمى فيها واطمئناناً من القرآن الكريم إلى أن ما يكشف عنه البحث العلمى الموضوعى فى هذا المجال ، لن يكون متعارضاً مع الأساس الذى تقوم الحياة عليه ، وهو أن يكون الناس جميعاً إخوة — فهم أبناء أب واحد وأن يعملوا فى الحياة دون أن يكون لفروق اللون — بشرية كانت أو طبيعية — من الأثر ما يعوق هذا التعاون الإنسانى من أجل حياة أفضل .

الفروق المكانية :

وانطلاقاً من هذا الأساس — وحدة الإنسان — يعالج القرآن الفروق المكانية بين الناس . إنهم يعيشون شعوباً وقبائل . ولكل شعب أو قبيلة موطن . وعليهم جميعاً أن يتعارفوا على أساس من تقوى الله .

وفى هذا يقول الله :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » : [الحجرات : ١٣] .

الإسلام ينظر إلى الإنسانية كأنها حديقة كبيرة تختلف ألوان أزهارها ، دون أن يكون للون فضل على آخر . وإلى هذا ذهب الرسول (ﷺ) فى حديثه الذى يقول فيه : « أنا سابق العرب ، وصهيب

سابق الروم، وسلمان سابق الفرس ، وبلال سابق الحبش »[١] فهؤلاء هم السابقون من شعبهم إلى الإسلام ضمهم مع نفسه فى باقة مؤمنة .

ولكن لم يكن من اليسير على النفس وقتئذ أن تقبل هذا الإخاء الكبير الذى جاء به الإسلام ، بعد أن مزقتها العصبيات الإقليمية واللونية والطبقية ؛ وتراكمت فيه رواسب تاريخية أصبحت جزءاً أساسياً من التكوين العقلى للمجتمع . وكان على الإسلام أن يبدأ بتصحيح المفاهيم — فى عالم الفكر أولا — وينقل هذه المفاهيم من النفس إلى الحياة ليحدد أبعاد المجتمع الجديد على أساس عريض من الإيمان والأخوة الإنسانية والعمل الصالح .

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٢ : ٧٢٩ ط نهضة مصر . القاهرة ، أخرجه الحاكم فى المستدرك ٣ : ٢٨٥، ٤٠٢ عن أنس .

٥

والأنبياء فيها إخوة

الأنبياء أمة واحدة :

وتأكيداً لمعنى الإخاء الإنسانى عبر التاريخ، نرى القرآن الكريم يأمر المسلم بأن يؤمن بجميع الأنبياء السابقين دون تفرقة بينهم فيقول الله :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » [البقرة : ٢٨٥] .

والقرآن الكريم لا ينص على أن الله قد ذكر كل الرسل فى القرآن ، وإنما هو يقول عن الأنبياء: « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » [غافر : ٧٨] .

والإنسان فى نظرته إلى الدين إنما يلتمس فيه المبادئ السليمة التى تقوم بها الحياة الإنسانية ، دون أن يظن أنه أحاط حتى بأسماء الأنبياء ، فضلا عن تفاصيل قصصهم فهو حين يرى أمامه عملا صالحاً فعليه أن يقدره ويحترمه ، وإن كان من دين لم يرد به نص صريح فى كتابه الذى أنزله الله عليه .

ويأمرنا الله أن يكون هذا قولنا دائماً ، ويؤكد هذا المعنى فى أكثر من آية فى القرآن .

« قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » [البقرة : ١٣٦] .

وفى القرآن سور كثيرة تمجد الأنبياء السابقين وتذكر ما لهم من فضل ، وجهادهم فى سبيل الحق ، بل إن نحو ثلاثة أرباع القرآن يتكون من عرض لقصص الأنبياء من زوايا مختلفة أهمها ثلاث : تثبيت المؤمنين على طريق الحق ، وبيان شدة الصراع الذى لقيه الأنبياء من أقوامهم ، والجزاء الذى يحل بالظالمين . . وبعبارة أخرى تكوين المؤمن بالصراع الاجتماعى ونتائج الصراع .

ويدعونا القرآن إلى أن نقتدى بهذه النماذج الإنسانية على تباعد الأزمنة بينها والأمكنة، ويعتبرهم جميعاً أمة واحدة فيقول :

« إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » [الأنبياء : ٩٢]

ويعقب على هذا بقوله مبيناً طبيعة الصراع مؤكداً وجوب العمل لإقرار قيم الحق والعدل فى الحياة فيقول :

« وتقطعوا أمرهم بينهم ، كل إلينا راجعون . فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون » [الأنبياء : ٩٣–٩٤] .

وبرغم ما حدث بين أتباع الأديان من صراع عبر التاريخ ، فإن مكانة الأنبياء جميعاً ظلت لها قداستها فى أرض الإسلام . يقرءون ما كتب الله عنهم ويتقربون به إلى الله فيظل الشعاع النورانى الذى يربط بين

الإنسانية يضيء القلوب ، ويدعوها دائماً إلى الإخاء الإنسانى الذى كافح من أجله الأنبياء والمصلحون .

إتمام لا بدء :

ويصور النبي (ﷺ) الجهد المشترك بين الأنبياء جميعاً ، وأنهم يعملون من أجل هدف واحد فى مثال حسى فيقول :

« إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فى زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »(١) .

وحديثه عن الأنبياء يحمل دائماً هذا الروح من الإخاء والزمالة التى دعا إلى تأكيدها فى جوانب الحياة .

فهو يقول عن يوسف : « أتدرون من الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ؟ إنه يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم »(٢) .

ويقول عن يونس : « دعوة ذى النون، إذ دعاه فى بطن الحوت، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة فى كتاب المناقب : باب خاتم النبيين ٥ : ٤٠٧ــ٤٠٨ . وقد أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الفضائل : باب كونه (عليه السلام) خاتم النبيين ٤ : ١٧٩٠ــ١٧٩١ . وأحمد فى المسند ١٣ : ٤٣ ، ٢٣٤ طبع المعارف .

(٢) البخارى ٦ : ٢٨٩ ، ٣٠٠ ، وأحمد فى المسند ٨ ، ٨٦ طبع المعارف ، وكلاهما من رواية ابن عمر .

مسلم فى شيء قط إلا استجاب الله له »(١) .

ويقول عن موسى : « رحم الله موسى أوذى بأكثر من هذا فصبر »(٢).

ويقول عن عيسى : «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، والأنبياء أولاد علات ليس بينى وبينه نبى »(٣) .

وكان يحس هذا الإخاء مع الأنبياء جميعاً فى حياته اليومية ، ففى رحلته إلى الطائف يدعو قبيلة ثقيف إلى الإسلام ، ردته القبيلة رداً غير جميل وأغرت به السفهاء والغلمان يرمون قدميه بالحجارة ويصرخون فيه حتى لجأ إلى بستان يعمل فيه عامل نصرانى ، رق قلبه للرسول فأحضر له بعض الماء والفاكهة . . وسأله الرسول : من أهل أى البلاد أنت يا عداس ، وما دينك ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى ، فقال الرسول (ﷺ) : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . ويعجب العامل ويسأله : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فيقول الرسول : « ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى »(٤) .

هدف واحد وألوان متعددة :

وفى رحلة الإسراء والمعراج التى أسرى الله فيها برسوله عليه الصلاة

---

(١) أخرجه الترمذى عن سعد ٢ : ٢٦٤ طبع المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٢٩٢ ، والحاكم فى المستدرك ٥ : ٥٠٥ بدون ذكر لفظ الأخ وكذلك أحمد فى المسند ٥ : ٥٧ طبع الحلبى .

(٢) البخارى فى صحيحه ٦ : ١٨٠ ، ومسلم ٢ : ٧٣٩ .

(٣) البخارى فى صحيحه ٦ : ٣٥٤ ومسلم ٤ : ١٨٣٧ كلاهما من رواية أبى هريرة .

(٤) سيرة بن هشام ٢ : ٦٢ .

والسلام من المسجد الحرام فى مكة إلى المسجد الأقصى بالقدس الشريف ؛ ثم عرج به بعد هذا إلى السموات ورأى من آيات ربه الكبرى ، ثم عاد إلى موطنه ، وهى من التراث الذى تأثر به دانتى فى الكوميدية الإلهية ..

فى هذه الرحلة يحدثنا الرسول عن لقائه بالرسل، ويعطينا وصفاً لأهم ملامحهم : فمنهم من غلبت عليه الأدمة — أى السواد — ومعنى آدم فى العربية الأسود — ومنهم من كان أسمر اللون ؛ ومنهم من كان أبيض ناصع البياض ، يذكر هذه الألوان جميعاً دون أية تفرقة بينهم أو تفضيل على أساس من اللون ، ويذكر أن صلاة واحدة جمعتهم فى هذه الليلة المباركة[١] .

هذه باقة من الأنبياء ، لقيهم الرسول فى ليلة الإسراء والمعراج ، كما تحدث بعد عن أصحابه الذين آمنوا به على اختلاف ألوانهم — رسلا ومؤمنين — دون أية تفرقة بينهم .

---

(١) البخارى فى صحيحه ٦ : ٣٤٩ .

٦

والناس في الدين إخوة

والإسلام يستخدم لفظ « الجاهلية » للمجتمع السابق عليه . والجهل ليس ضد العلم وإنما هو أساساً ضد العدل . الجهل هنا معناه الأساسي الظلم بكل ما يحمل من إخضاع العلم والحق لخدمة الأهواء .

وإلى هذا المعنى يذهب الشاعر العربي عمرو بن كلثوم قبل الإسلام :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أي لا يظلمنا أحد متعدياً حده فنضطر إلى رد الظلم بأشد منه !! .

ومن هنا كان الإسلام يسمى التفرقة العنصرية بكل مظاهرها جاهلية : الاعتداد بالأنساب والأوضاع القبلية والمستوى الاقتصادي .

والرسول (صلى الله عليه وسلم) يخطب الناس فيقول :

« يا أيها الناس : إن الله قد أذهب عنكم عبية[1] الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل بر تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب ، قال الله " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم " »[2] .

(١) عبية الجاهلية : (بضم العين وتكسر) نخوتها ، ورجل فيه عبية أي كبر وتجبر .

(٢) الترمذي عن ابن عمر .

« كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعـالى من الجعلان » (وهى الحشرات الصغيرة) (١) .

« إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد ، كلكم بنو آدم ، طف الصاع لم تملئوه — أى أن افتخاركم بآبائكم خروج على ما علمكم ربكم — ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى » (٢) .

ويقول ناصحاً صاحبه أبا ذر الغفارى (رضى الله عنه) :

« انظر ، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود — من السيادة — إلا أن تفضله بتقوى الله » (٣) .

وكان من دعائه (ﷺ) وهو يناجى ربه فى آخر الليل : « اللهم إنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن العباد كلهم إخوة » .

ولكن هذا لم يكن يسيراً على نفوس عاشت على إنزال الأوضاع القبلية منزلة تكاد أن تكون مقدسة ، يحتفظون بأنسابهم جيلاً بعد جيل بصورة يصعب — إن لم يكن من المستحيل — أن نجد لها نظيراً فى أمة من الأمم . .

فكيف ينقلهم الإسلام وينقل الإنسانية بهم ومعهم إلى هذا الطريق المستقيم من الإيمان والمساواة ! !

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره ٨ : ٣٠ ، عن البزار فى مسنده عن حذيفة .

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٤ : ١٤٥ — ١٨٥ ٧ . طبع الحلبى ، عن عقبة بن عامر .

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٥ : ١٥٨ ، عن أبى ذر الغفارى ، طبع الحلبى .

في الدعوة :

لقد كانت هناك قبل الإسلام تفرقة فى العبادة على أساس قبلى ، أو قل على أساس عنصرى ، ومهما يكن الدافع إلى هذه التفرقة ، فإنها لن تخرج — موضوعياً — عن كونها تفرقة ، كان على الإسلام أن يقضى عليها .

وتبدأ المساواة فى الإسلام بعقيدة واحدة للجميع ، ليس فيها أسرار ولا تخصيص ، وإنما الدين للناس جميعاً . والله يخاطب رسوله فيقول : « يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » . (الأعراف : ١٥٨) . وهو ليس رسولا إقليمياً ولا عنصرياً .

وهو يقول : « بعثت إلى الناس كافة ، الأحمر ، والأسود »[١] .

ومن طبيعة هذه الدعوة العالمية ألا تعرف العصبية وهى من أهم أسباب الخلف بين الناس .

ولقد كان من الجوانب التى هاجمتها قريش فى الدعوة الإسلامية أنها أنزلت على رجل فقير ، ويسجل القرآن هذا فيقول :

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » : [الزخرف : ٣١ — ٣٢] .

(١) مسند أحمد بن حنبل ٤ : ٢٦١ ، ط المعارف عن رواية ابن عباس .

وسنعود إلى هذه الآية فيما بعد ، وإنما الذى يعنينا منها هنا أن الفقر أو الوضع الاقتصادى كان من أسباب الهجوم على الإسلام فى مكة :

ولم يكن العرب يتصورون وقتئذ – فى الأغلب – أن هذه الدعوة خالصة ، من أجل ذلك عرضوا على الرسول كل الجوانب التى يرون فيها التميز – وهى أساس حياتهم – لينصرف عن الإسلام :

« إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا »(١) .

ولكنه أعرض عن المال والمكانة الاجتماعية والحكم . . وبعبارة أخرى عن التمييز على أساس اقتصادى أو اجتماعى أو سياسى ، ولم يرض منهم بغير الإيمان والإخاء الإنسانى .

وبذلك أسقط الرسول من أول الأمر هذه العوامل التى تؤدى إلى التفرقة . ولنأخذ نماذج على ذلك من العبادات الإسلامية .

فى العبادة :

والصلاة أبرز مظاهر العبادة فى الإسلام . . تتكرر فى اليوم خمس مرات ويجتمع الناس فى صلاة الجمعة والعيدين ؛ ثم يجتمعون فى أضخم اجتماع فى موسم الحج ، وهم فى المسجد يقفون صفوفاً على

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٣١٣ .

اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، والصفوف الأولى من حق الذين يأتون مبكرين إلى المسجد ؛ والإمام أقرؤهم لكتاب الله ، والذى يؤذن للصلاة ينبغى أن يكون من خيار الناس . وكان المؤذن الأول لرسول الله عبداً حبشياً أذاه كفار قريش أذى بليغاً ، وكانوا يلقونه على الأرض الملتهبة من شدة الحرارة ويضعون الحجر الساخن على بطنه؛ فاشتراه أبو بكر صاحب رسول الله (ﷺ) وأعتقه، فكان عمر بن الخطاب الخليفة الثانى يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا »[1]؛ وكان بلال حسن الصوت وهاجر مع الرسول من مكة إلى المدينة . وكان يؤذن له فى مقامه وفى سفره ، وعندما فتح الرسول مكة فى العام الثامن للهجرة أمر بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة؛ فكان صوته أول صوت ارتفع فوقها بالأذان . ثم انقطع عن الأذان بعد وفاة رسول الله ولم يؤذن إلا مرة واحدة بناء على رغبة المسلمين فى المسجد الأقصى بالقدس الشريف .

وبهذا كان صوت بلال الحبشى الأفريقى هو الصوت الذى ارتفع بالأذان فوق المساجد الثلاثة التى يقدسها المسلمون .

وكذلك فى مجال العلم . ففى عهد بنى أمية ؛ وبعد وفاة كبار الفقهاء العرب الذين عرفوا باسم العبادلة (الذين يحملون اسم عبد الله وهم أبناء عمر وعباس والزبير وابن العاص) صار الفقه فى معظم البلاد الإسلامية إلى غير العرب . فكان فقيه أهل مكة وإمام الحرم الشريف عطاء بن

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ١ : ١٤٧ من قول عمر ، والحاكم فى المستدرك ٣ : ٢٨٤ .

أبي رباح . وتصفه كتب التاريخ الإسلامى بأنه كان فى سواد الغراب ، أعرج أفطس الأنف ، يقول عنه الإمام الأوزاعى فقيه الشام : كان عطاء أرضى الناس عند الناس، وقدم عبد الله بن عمر مكة فسألوه فقال : تجمعون لى المسائل وفيكم ابن أبي رباح[1] ؟ . وكان إمام اليمن «طاووس» ؛ وفقيه أهل اليمامة يحيى بن كثير ، وفقيه أهل البصرة الحسن البصرى ، وفقيه أهل الشام مكحول ، وفقيه أهل خراسان عطاء الخراسانى ، أما المدينة فكان فيها فقيه من قريش هو سعيد بن المسيب ، الذى رفض أن يزوج ابنته لابن الخليفة الأموى ، ورضى أن يزوجها من أحد تلاميذه لاطمئنانه إلى دينه وخلقه وإقباله على العلم[2] .

ولقد كانت قريش فى الجاهلية تتشدد فى أمر الحج ؛ وأهم مناسكه الوقوف بجبل عرفات ، ولكن قريشاً كانت لا تذهب إليه مكتفية بالوقوف عند المزدلفة ، وهى تدخل فى حدود منطقة الحرم ، فى حين أن عرفات خارجه ، وتأكيداً للمساواة التامة بين الناس فى أداء فريضته أمر قريشاً أن يكون وقوفها فى عرفات دون أن تتميز على بقية المسلمين . وجاء هذا بنص القرآن الكريم : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » . [البقرة :١٩٩] وكانوا فى المزدلفة يذكرون فى الجاهلية أمجادهم وآباءهم ويتفاخرون بعصبياتهم ، فنهاهم عن ذلك وأمرهم بأن يذكروا الله الذى خلقهم وينتهوا عن التفاخر بالآباء والأجداد . وفى هذا يقول الله تعالى : « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً » . [البقرة : ٢٠٠] .

(١) النووى تهذيب الأسماء واللغات : ٣٣٣ — ٣٣٤ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٩ : ١٠٠ ط . السعادة ، القاهرة .

٧

وهم في المجتمع إخوة

١ — فى نظام الأسرة :

والإسلام لا يجعل اللون أو الوضع الاجتماعى حائلاً دون تكوين الأسرة . وكل ما يشترطه هو التراضى والقدرة على تكوين البيت والقيام بأعبائه على أساس مستقر . هذا هو جوهر الكفاءة فى الإسلام .

ويقول الرسول (ﷺ) : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه — أى زوجوه — ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير »[١]. وقوله : « من ترضون دينه وخلقه » دليل على اعتبار الكفاءة على أساس من الدين والأخلاق[٢].

يقول الإمام مالك : الكفاءة فى الدين لا غير[٣]. وإلى هذا ذهب أكثر أهل العلم فى الإسلام من السنة والشيعة . ويعبر الإمام ابن حزم الأندلسى عن هذا الخط الفكرى الأساسى فى الإسلام فيقول : « وأهل الإسلام كلهم إخوة : لا يحرم على ابن من زنجية لغية — اللغية فى اللغة ما لا يعتد به — نكاحَ ابن الخليفة الهاشمى . . »، وقال أبو حنيفة : « إذا رضيت القرشية بالمولى ووفاها صداق مثلها أمر الوالى أن ينكحها ، فإن

(١) الترمذى ٢ : ٢٠١ عن أبى حاتم المزنى ، وابن ماجه فى سننه ١ : ٦٣٢ .
(٢) الشوكانى : نيل الأوطار ٦ : ١٢٧ .
(٣) ابن قدامة : المغنى ٥ : ٤٨٢ .

أبي أنكحها القاضي »، وقال مالك والشافعي وأبو سليمان كقولنا . . والحجة قول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة »[١].

ومن الناحية التطبيقية تزوجت أخت عبد الرحمن بن عوف (وهي قرشية) من بلال بن رباح مؤذن رسول الله (ﷺ) ، وبلال كما سبق القول كان حبشياً ، كما زوج أبو حذيفة (أحد كبار الصحابة) بنت أخيه لمولاه ، وكذلك أعتق الحسين بن علي بن أبي طالب جارية له ثم تزوجها . وعندما عاب عليه معاوية ذلك كتب إليه يقول : « قد رفع الله بالإسلام الخسيسة ووضع عنا به النقيصة . فلا لوم على امرئ مسلم إلا في أمر قائم . وإنما اللوم لوم الجاهلية »[٢] .

ذلك لأنه ليس من اليسير عملياً على كل النفوس أن تقبل هذا السمو ، الذي يدعوها إليه الإسلام ، فلا ترى إلا جوهر الإنسانية دون تأثر بوضع طبقي أو لوني أو عنصري ، وكان لا بد من الممارسة والاستمرار حتى تتأصل هذه الأخلاق في المجتمع الإنساني .

٢ — وفي نظام الحكم :

ولقد تكلم علماء الإسلام في الشروط الواجب توافرها في الخليفة الذي يلي أمر المسلمين وهي : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل ، واختلفوا في شرط خامس وهو النسب القرشي .

أما النسب فللإجماع الصحابة بعد موت النبي (ﷺ) عندما اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة واحتجت قريش على الأنصار عندما هموا ببيعة

---

(١) ابن حزم : المحلى ١٠ : ٢٤ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ٢٢٩ .

سعد بن عبادة الأنصارى ليكون خليفة للمسلمين . وكانت حجتهم قول النبي (ﷺ) : « الأئمة من قريش »، وكانت الحجة التى ساقها عمر بن الخطاب فى هذا الموقف مخاطباً الأنصار من أهل المدينة : « والله لا ترضى العرب أن تؤمركم – أى يجعلوكم أمراء – ونبينا من غيركم » . وقال أبو بكر : « لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش » وانتهى الأمر ببيعة أبى بكر خليفة لرسول الله[1] .

ويعقب ابن خلدون فى مقدمته على هذا فيقول : « ونحن إذا بحثنا عن الحكمة فى اشتراط النسب القرشى .. لم نجدها إلا فى اعتبار العصبية – أى القوة – التى تكون بها الحماية والمطالبة ، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب ، فتسكن إليه الملة وأهلها ، وينتظم حبل الألفة فيها وذلك أن قريشاً كانوا عصبة مفرد أصلهم ، وأهل الغلب منهم ؛ فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ، فلو جعل الأمر – أى أمر الخلافة – فى سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم . . . فتفترق الجماعة . فإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما لهم من العصبية والغلب ، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة ، علمنا أن ذلك إنما هو من – شرط – الكفاية فرددناه إليها وطردنا الصلة المشتملة على المقصود من اشتراط القرشية ، وهى وجود العصبية فاشترطنا فى القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية عالية على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية »[2] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢ : ٢٢٣ – ٢٢٤ ط . دار الكتاب العربى . بيروت .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ١٩٣ – ١٩٦ ط . التجارية بالقاهرة .

٣ – وفى القضاء :

ويستوى الناس جميعاً فى الإسلام أمام القضاء . . والقاضى نفسه لا يشترط فيه أى شرط عنصرى أو لونى ، وإنما علمه وكفاءته وأخلاقه .. وبين يديه يجلس الجميع ليقضى بينهم دون تمييز .

وفى عهد رسول الله (ﷺ) سرقت امرأة من بنى مخزوم (من أشراف العرب) ووجب إقامة الحد عليها . وكبر على نفوس بعض القرشيين أن يقام الحد على امرأة مخزومية، وفكروا فيمن يستطيع أن يحدث رسول الله فى هذا ويحمل إليه شفاعة القوم ، وأجمعوا أمرهم على أسامة بن زيد، وكان قريباً إلى نفس النبى حبيباً عنده ، لمنزلته ومنزلة أبيه ، فأنكر الرسول شفاعة أسامة ، على حبه له ، وانتهره قائلا : « أتشفع فى حد من حدود الله . . ؟» . ثم قام فخطب الناس فقال : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا الحد عليه . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »(١) .

وشكا يهودى على بن أبى طالب إلى عمر بن الخطاب فى خلافته . فلما مثلا بين يديه خاطب عمر اليهودى باسمه ، بينما خاطب علياً بكنيته فقال له : يا أبا الحسن – حسب عادته فى خطابه معه – فظهرت آثار الغضب على وجه على . فقال له عمر : أكرهت أن يكون خصمك يهودياً ، وأن تمثل معه أمام

---

(١) صحيح البخارى فى كتاب الأنبياء : ٦ : ٣٧٧– ٣٧٨، ومسلم فى كتاب الحدود : باب قطع السارق الشريف وغيره ، والنهى عن الشفاعة فى الحدود ٣: ١٣١٥ كلاهما عن عائشة رضى الله عنها .

القضاء ؟ فقال علي : لا ، ولكنني غضبت لأنك لم تسو بيني وبينه، بل فضلتني عليه ، إذ خاطبته باسمه بينما خاطبتني بكنيتي (والخطاب بالكنية كان أسلوباً من أساليب التعظيم للمخاطب) .

٤ — وفي فرص العمل والأمن :

والإسلام يعطي كل فرد الحق في أن يمارس من العمل المشروع ما يروق له ، وتكون لديه الكفاية للقيام به .

والله يدعو الناس جميعاً إلى العمل والانتشار في الأرض وكسب الرزق، فيقول : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في منا كبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » . [الملك : ١٥] .

ويضع التنسيق الدقيق بين التوجه إلى المسجد لأداء الصلاة ، والانصراف منه بمجرد انتهائها طلباً للرزق ، فيقول : « يأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » . [الجمعة : ٩ — ١٠] .

فهو حين يدعوهم إلى الصلاة يصفها بأنها « ذكر الله » ، وحين يدعوهم إلى العودة إلى أعمالهم يصف البيع بأنه « فضل الله » ؛ فهو، في دخوله وخروجه ، يستجيب لأمر الله طاعة له في العبادة وفي طلب الرزق .

بل إن الإسلام ليدعو إلى طلب الرزق ، حتى في أثناء أداء فريضة الحج فيقول : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم، فإذا أفضتم

من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » [البقرة : ١٩٨]

وروى عن ابن عباس أن قوماً قدموا على الرسول (ﷺ) فقالوا إن فلاناً يصوم النهار ويقوم الليل ، ويكثر الذكر ، فقال : أيكم يكفيه طعامه ؟ فقالوا : « كلنا — أى أننا نتعاون جميعاً على سد حاجته — حتى يفرغ لعبادته » ، فقال عليه الصلاة والسلام : « كلكم أعبد منه » .

ولم ينقطع أبو بكر — الخليفة الأول — عن التجارة إلا بعد أن فرض له المسلمون من بيت المال ما يسد حاجته وحاجة من يعولهم حتى يتفرغ لأعمال الخلافة .

وحق العمل — كما يقرره الإسلام — مكفول لكل إنسان دون عائق عنصرى أو دينى أو طبقى .

فالدولة فى الإسلام مسئولة عن توفير الرعاية والمعاملة الطيبة التى تكفل انطلاق كل الطاقات فى المجتمع .

يقول الرسول (ﷺ) : « من آذى ذمياً فقد آذانى »[1] (والذمى هو غير المسلم ويعيش فى ذمة المسلمين أى فى مجتمعهم) .

ويقول : « من ظلم معاهداً — من له عهد مع المسلمين — أو أنقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة »[2] .

---

(١) السيوطى فى الجامع الصغير ٢ : ١٥٨ عن ابن مسعود .

(٢) رواه أبو داود عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن آبائهم عن رسول الله أنه قال : « ألا من ظلم معاهدا أو تنقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا خصمه » . قال السخاوى فى المقاصد ص ٣٩٢ — ٣٩٣ وسنده لا بأس به . هذا ، وقد رواه البيهقى فى سننه ٩ : ٢٠٤ — ٢٠٥ عن ثلاثين من أبناء أصحاب رسول الله (ﷺ) عن آبائهم عن رسول الله (ﷺ) .

ويقول عمر بن الخطاب فى عهده إلى أهل بيت المقدس عقب فتح المسلمين له: « هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانا لأنفسهم فى أموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم »[1].

هذا الأمان هو الأساس العريض الذى تنطلق منه الطاقات عاملة منتجة دون عدوان على فرد أو حق المجتمع

٥ — ويحمى حياته وكسبه:

والمجتمع مسئول بعد هذا عن حماية الفرد وإنتاجه؛ تستوى فى هذا نفس المسلم وغير المسلم..

ولنأخذ مثالا على ذلك من حالة القتل العمد.

فالإسلام لا يفرق فى القصاص بين أن يكون القتيل رجلاً أو امرأة، بالغاً أو صبياً، عاقلاً أو مجنوناً، عالماً أو جاهلاً، غنياً أو فقيراً، مسلماً أو ذمياً، أبيض أو أسود.. وذلك لعموم قوله تعالى: « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » [المائدة: ٤٥] ويقول تعالى: « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ». [البقرة: ١٧٩].

---

(١) تاريخ الطبرى: ٣ : ٦٠٩ ط. المعارف. القاهرة.

ولا يفرق الإسلام بين أن يكون القاتل واحداً أو جماعة ، بالغاً ما بلغ عددهم ، بل إن فقهاء الإسلام ليقررون أن « أحق ما يجعل فيه القصاص هو قتل الجماعة بواحد ، لأن القتل لا يوجد عادة إلا على سبيل التعاون والاجتماع ، فلو لم يجعل فيه القصاص لانسد باب القصاص ، إذ كل من رام قتل غيره استعان بآخرين يضمهم إليه ليبطل القصاص عن نفسه . وفى ذلك تفويت لما شرع له القصاص وهو الحياة » . وقد قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه جماعة فى واحد ، وقال فى ذلك قولته المشهورة . لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعاً .

ويذهب طائفة من فقهاء الإسلام وعلى رأسهم الإمام أبو حنيفة النعمان إلى أن قتل المسلم بالذمى أبلغ منه فى قتل المسلم بالمسلم ، لأن العداوة الدينية قد تحمل على القتل ، فكانت الحاجة إلى الزجر أمس ، وكان تحقيق الحياة فى شرع القصاص من المسلم إذا قتل ذمياً أبلغ من تحقيقها فى شرع القصاص من المسلم إذا قتل مسلماً[١] .

الإسلام بهذا يحترم الحياة الإنسانية على الإطلاق ، ويحترم حق الإنسان فى الحياة . وأنه وضع عقوبة القصاص لحماية الحياة دون نظر إلى جنس القاتل أو مكانته الاجتماعية أو الاقتصادية أو لونه أو دينه .

وعلى أساس من احترام الإسلام للحياة والعمل ، يحترم حق العامل فى أجره وفى هذا يقول الرسول (ﷺ) : « اعطوا الأجير حقه قبل أن يجف

---

(١) د . على عبد الواحد وافى (١٩٦٧) حقوق الإنسان فى الإسلام ص٢٤٧ـ٢٥٦ ط . دار النهضة مصر . القاهرة .

عرقه ، وأعلمه أجره وهو فى عمله »[١] . ويقول عليه الصلاة والسلام : « قال الله عز وجل : " ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة . . " وذكر منهم . " رجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره »[٢] .

ويطبق هذا على جميع أنواع العمل المباح ؛ سواء فى ذلك الأعمال الجسمية أو الأعمال العقلية أو أعمال التنظيم .

---

(١) أخرجه البيهقى من حديث أبى هريرة ١ : ١٩٩ . وقد أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر فى كتاب الرهون : باب أجر الأجراء ٢ : ٨١٧ .

(٢) البخارى ٣ : ١١٨ فى باب الإجارة .

٨

نمـاذج بشرية

١ – فى صدر الإسلام :

(ا) وأول النماذج التى يذكرها المسلمون تأكيداً لارتفاعه بالإنسانية فوق مستوى التفرقة العنصرية بلال بن رباح الحبشى مؤذن رسول الله، فى مسجد المدينة . كان الرسول يؤم المسلمين ، وكان بلال يؤذن لهم . والإمامة والآذان هما الوظيفتان الرئيسيتان فى المسجد .

ويقول فيه عمر بن الخطاب الخليفة الثانى : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا »[1] (يعنى بلالا) وهو ثلث الإسلام ، أى ثالث إنسان استجاب للإسلام .

(ب) ومن السودان (وهو اللفظ الذى كان يطلقه العرب على من كان أسود البشرة) المقداد بن الأسود صاحب رسول الله (ﷺ) وكان من أجلاء الصحابة وقد شهد مع الرسول غزوة بدر الكبرى ثم شهد المشاهد كلها . يقول المقداد : لما نزلنا المدينة عشرنا رسول الله (ﷺ) عشرة عشرة فى كل بيت (أى قسمهم إلى عشرات) قال : فكنت فى العشرة الذين كانوا مع رسول الله

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ١ : ١٤٧ من قول عمر ، والحاكم فى المستدرك ٣ : ٢٨٤ وصححه وأقره الذهبى .

(ﷺ) ولم يكن لنا إلا شاة نتجزى لبنها [١] .

ومنهم جليبيب الذى يحدث الرواة أن رسول الله (ﷺ) خرج فى غزاة؛ فقال لأصحابه هل تفقدون من أحد ؟ فقالوا : نفقد فلانا وفلانا . ثم خرج فقال : هل تفقدون من أحد ؟ . . . قالوا فى الثالثة : لا . قال : لكنى أفقد جليبيباً اطلبوه ، فطلبوه ، فطلب فى القتلى ، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتل . فأتى النبى (ﷺ) فوقف عليه فقال : قتل سبعة ثم قتلوه . هذا منى وأنا منه قال : فوضعه على ساعديه ، ليس له إلا ساعدا النبى (ﷺ) ، قال : فحفر له ووضع فى قبره [٢] .

٢ ــ عند مؤرخى وجغرافيي الإسلام :

ولم يتخذ علماء الإسلام فى التاريخ والجغرافيا والعمران موقفاً عدائياً من أى جنس على أساس من اللون .

فالمسعودى – على سبيل المثال ــ عندما يتحدث عن الأجناس ويصل إلى السودان ويقصد بهم سكان أفريقية جنوب الصحراء ، يتحدث عن بلادهم فى موضوعية فيقول : « والزنج أولو فصاحة فى ألسنتهم وفيهم خطباء بلغتهم . يقف الرجل منهم الزاهد فيخطب على الخلق الكثير منهم ، ويرغب فى القرب من بارئهم ويبعثهم على طاعته ،

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٤ : ١٤٨٢ والحديث فى مسند أحمد ٦ : ٤ ط . الحلبى ،والمعنى نقتسم لبنها أجزاء بيننا ، أنظر النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١ : ١٥٩ .

(٢) الحديث رواه مسلم فى صحيحه ٤:١٩١٨ عن أبى بزرة . والخبر أيضاً فى الإصابة ١ : ٢٥٣ ، والاستيعاب ١ : ٢٩٣ ومسند الطيالسى ص ١٢٥ ، وذكره الجاحظ فى رسالة فضل السودان انظر رسائل الجاحظ ص ٥٥ ، ٥٦ .

ويرهبهم من عقابه وصولته ويذكرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم»[١] .

وهو حين يتحدث عن ملوك الصين يذكر ما عندهم من عدل وما يأخذون به أنفسهم من رعاية لحقوق التجار الغرباء الذين يقصدون أرضهم[٢] .

ونفس المنهج نجده عند ابن خلدون فى مقدمته عندما يعرض لذكر الأجناس البشرية .

فهو يعرض الأجناس البشرية ، ولكنه لا يغالى فى تأثير البيئة الطبيعية ولا ما يرتبط بها من صفات بدنية ، بل يوجه كل عنايته إلى البحث عن العوامل الاجتماعية ، ويسعى إلى إظهار أثر الحرفة وأسلوب الحياة ، ويعطى هذه العوامل الموقع الأول فى تكوين الطبائع والسجايا .

ونظرية ابن خلدون فى هذا ملخصة فى وضوح ، فى سياق دراسته للمشرق ومقارنته بالمغرب الإسلامى ، فى أحد فصول الباب السادس من المقدمة . عند دراسته «تعليم العلم» يقول ابن خلدون عن أهل المشرق :

«أهل المشرق على الجملة أرسخ فى صناعة تعليم العلم وفى سائر الصنائع ، حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق فى طلب العلم ، أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب . . . ويعتقدون أن التفاوت بيننا وبينهم فى حقيقة الإنسانية ، ويتشيعون

(١) مروج الذهب ١ : ٢٤٤ .

(٢) مروج الذهب ١ . ٨٥ :

لذلك . . لما يرون من كسبهم فى العلوم والصنائع ، وليس كذلك . . . وإنما الذى فضل أهل المشرق من أهل المغرب ، ما يحصل فى النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد كلما تقدم فى الصنائع . . . فيظنه العامى تفاوتاً فى الحقيقة الإنسانية ، وليس كذلك »(١) .

هذا الخط الفكرى الذى يربط بين ما تتميز به الشعوب وبين الظروف الاجتماعية التى تعيش فيها ، هو ما يؤكده البحث العلمى الحديث ، وما تدعو إليه اليونسكو دون أى ربط بين هذه المميزات والصفات الطبيعية للإنسان .

٣ - القرآن ونظرته إلى اللون :

وأساس ذلك فى الإسلام نظرة القرآن إلى اللون . ويمكن أن نقف عند كلمتين أو مادتين من كلمات القرآن : الأولى السواد، والثانية البياض .

فلقد جاء ذكر السواد فى القرآن عشر مرات :

ثلاث منها بمعنى السيادة : الأولى فى وصف سيدنا يحيى ، وذلك فى قوله تعالى : « فنادته الملائكة — والمقصود هنا سيدنا زكريا — وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله «وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين » [آل عمران : ٣٩] ؛ والثانية وصفاً لعزيز مصر فى قصة يوسف ، وذلك فى قوله تعالى : « واستبقا الباب — والآية تقصد يوسف وامرأة العزيز — وقدت قميصه من دبر ، وألفيا سيدها لدى الباب » [يوسف : ٢٥] والثالثة فى قوله تعالى : « وقالوا ربنا إنا أطعنا

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٠ – ٤٣٣ .

سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » [الأحزاب : ٦٧] .

وفى هذه المواضع نجد السيادة فى الأولى مدحاً وفى الثانية عرضاً تقريرياً دون مدح أو ذم وفى الثالثة ذماً .

وجاء السواد خمس مرات وصفاً لحالة تعترى الوجه لا باعتبارها صفة لازمة له : منها موضعان فى سورة آل عمران عن اسوداد وجوه الكافرين يوم القيامة ، وذلك فى قوله تعالى: « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» [آل عمران : ١٠٦] .

ولهذا صلة بعذابهم دون نظر إلى لونهم الأصلى .

وموضع ثالث فى سورة الزمر (الآية ٦٠) لنفس الموقف ، وذلك فى قوله تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » .

ثم مرتان وصفاً لحالة قوم تسود وجوههم إذا بشروا بالأنثى وذلك فى قوله تعالى فى سورة النحل [الآية : ٥٨] :

« وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » .

وهو نوع من التفرقة بين الذكور والإناث عابه القرآن على المجتمع الجاهلى ، ثم قوله تعالى : فى سورة الزخرف [آية : ١٧] : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا — أى بالأنثى عندما وصفوا الملائكة بأنهم بنات الله — ظل وجه مسوداً وهو كظيم » .

ويبقى بعد هذا موضعان جاء أولهما وصفاً لقطع من الجبال فى قوله تعالى : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود »

[فاطر : ٢٧] والوصف هنا إظهار لقوله تعالى ، جاء مع ذكر الأجزاء البيض والحمر . والموضع العاشر فى وصف الليل : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» [البقرة :١٨٧] .

وصفوة القول أن مادة « سود » جاءت فى القرآن الكريم مبينة للسيادة ، وجاءت مدحاً لموقف ، وذماً لموقف ، ووصفاً لظاهرات كونية كتعاقب الليل والنهار ، واختلاف ألوان الصخور ، ثم وصفاً لبعض مشاهد القيامة ، أو حالة عارضة تعرو الوجه نتيجة انفعال النفس . فلا نستطيع أن نقصرها على المدح أو الذم . . بل لا نستطيع أن نربطها بالمدح أو الذم . واللون الأسود بهذا ليس له فى القرآن منزلة يختلف بها عن سائر الألوان .

فإذا انتقلنا إلى اللون الأبيض وجدنا نفس الصورة : جاء فى القرآن فى اثنى عشر موضعاً .

جاء البياض فى سورة يوسف وصفاً لأشد حالات الحزن فيما يخبرنا به ربنا عن يعقوب عليه السلام : « وابيضت عيناه من الحزن» [يوسف : ٨٤] ، وجاء وصفاً لوجوه المؤمنين فى الآخرة مرتين : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فأما الذين اسودت وجوههم ، أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » [آل عمران : ١٠٦ — ١٠٧] والاسوداد هنا احتقانها من الحزن والابيضاض إشراقها من الفرحة . وجاء وصفاً لحور الجنة : «كأنهن بيض مكنون » [الصافات : ٤٦] والمقصود به هنا بيض النعام ، وكانت العرب تضرب به المثل فى صفائه . وجاء وصفاً

للفجر فى قوله : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ». [البقرة: ١٨٧] : وذلك عند الحديث عن بدء الصيام.
وجاء وصفاً للجبال : « ومن الجبال جدد بيض وحمر » [فاطر :٢٧]
وجاء وصفاً لمعجزة يد سيدنا موسى ، وربطت الآيات بين البياض وأنه من غير سوء — أى من غير مرض— وذلك فى سورة الأعراف : ١٠٨، وسورة طه : ٢٢ ، والشعراء :٣٢، وسورة النمل: ١٢، والقصص: ٣٢ .
ثم جاء وصفاً لشراب أهل الجنة : « يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين » [الصافات : ٤٥ — ٤٦] .

فاستخدام اللون الأبيض فى القرآن أيضاً قد يدل على الحزن الشديد أو على الجزاء الطيب ، وقد يكون إظهاراً لقدرة الله فى ظاهرة كونية أو صخرية . وقد يكون وصفاً للمرأة أو يد الرجل، ويفيد الوصف بأنه من غير سوء . . فشدة البياض مرض كما نعلم .

وصفوة القول أن القرآن لا يخصص اللون الأبيض للمدح أو الذم، ولا يربط بينه وبين مكانة فى الحياة ، وإنما الحجة الكبرى فى القرآن نجدها فى المساواة بين الناس كما تبينها آياته . أما التقدم فعلى أساس من اتباع أحكام الله: « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » [الحجرات :١٣] .

ولكن فى القرآن حديثاً عن درجات الناس . . فكيف يعالج القرآن هذه القضية ؟

٩

حديث الدرجات فى القرآن

بين المساواة والتفاضل :

نحن نقرأ فى القرآن حديث المساواة بين الناس ، ثم نقرأ فيه آيات مثل قوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » [الزخرف : ٣٢] . وقد يرى البعض فى المعنى القريب لهذه الآية ونظائرها تعارضاً مع القول بالمساواة .

من أجل ذلك كان علينا أن نتناولها بشيء من الدراسة . ولنبدأ أولا بالنص الكامل لهذا الحوار القرآنى : « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟! أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » [الزخرف : ٣١ — ٣٢] .

فالآية متعلقة بالنبوة . وكفار قريش يعترضون على نزول القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام . ووجه الاعتراض أنه ليس زعيماً من زعمائهم ، ولا صاحب مكانة أو صاحب مال كثير . والرأى عندهم أن يكون نزول القرآن على أشرافهم ، وذوى المنزلة والمال عندهم ؛ فهم يرون وجوب الجمع بين النبوة والمال والسيادة بين القوم . وما دامت النبوة

تكريماً وتشريفاً فينبغي – من وجهة نظرهم – أن تنزل على الأشراف أصحاب المال والمكانة بين القوم .

والقرآن يرد على هذا الرأى الفاسد . . الأصل الذى يحتم الجمع بين النبوة والثروة، ويقضى بنزول الوحى على الأغنياء دون الفقراء أو الصالحين. ومن هنا يأتى اعتراض القرآن الكريم : « أهم يقسمون رحمة ربك ؟ » يقول الإمام بن كثير : « ليس الأمر مردوداً إليهم ، بل إلى الله عز وجل . والله أعلم حيث يجعل رسالته . فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلا » . وهو يعنى بهذا رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام(١) .

ومحمد (ﷺ) كان فقيراً ، وفى هذا يقول الله : « ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ؟ » ، ويبنى عليها واجبات اجتماعية فيقول : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث» [الضحى : ٦– ١١] ؛ فليس أصلاً ولا حتماً أن يكون الرسول من أهل الغنى أو المكانة فى قومه ، وإنما الأساس أن يكون إنساناً صالحاً لتلقى هذه المهمة من ربه . ورحمة الله تعالى فى هذه الآية التى ندرسها ، واضح أنها النبوة .

يأتى بعد هذا جزء من الآية كثر حوله القول، وهو : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » ؛ ثم تعقيب الله على ذلك بقوله : « ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

وأخذ البعض من هذه الآية معناها الظاهر القريب من قسمة

---

(١) ابن كثير فى تفسيره ٤ : ١٢٧ .

الأرزاق ، والتفاوت بين الناس ، وأن هذا التفاوت يؤدى إلى سيطرة البعض على البعض . . وأن هؤلاء المستضعفين اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً ، عليهم ألا يحزنوا ، وأن يكتفوا بما أعد لهم الله من رحمة عنده يوم القيامة ، وزاد البعض على هذا قولهم بأن هذه الآية تدعو إلى السلبية وصرف الناس عن العمل رضاً بما قسم الله تعالى . وحاولوا تأكيد دعواهم هذه بآيات وأحاديث تحض الناس على الزهد والرضا بالقليل . وتابعوا قراءة ما جاء من آيات بعد الآية، موضوع الدراسة ، وهى قوله تعالى: « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا . والآخرة عند ربك للمتقين » .

[الزخرف : ٣٣ — ٣٥]

من كل ذلك نسجوا نسجاً حاولوا أن يقولوا إنه من الإسلام ، وأن التفاوت بين الناس والتفضيل أمر من أساس الدين . . وذلك بعد أن تضع القاعدة ، أن تتخذ من اللون أو الوضع الاقتصادى أو السياسى ذريعة لتبرير الاستغلال ، وتقول إنه الدين ، وما هو من الدين !! .

ولننظر إلى الآية من زاويتين :

الأولى : ما يتعلق بخصوص السبب ، أى سبب النزول .

الثانية : ما يتعلق بعموم القصد والعبرة الدائمة المتجددة من الآية .

صراع اجتماعى :

فيما يتعلق بخصوص السبب ، نرى أن المقام مقام دفاع عن الرسول (ﷺ) . وأن الله ينفى ضرورة الارتباط بين الغنى المادى ومقام النبوة ، ويسمى النبوة هنا رحمة ؛ الله هو الذى يقسمها . فلننظر إلى هذا « الرفع » فى مقام الأنبياء ، وهذه الدرجات التى جعلهم الله فيها .

لقد تحملوا هذه المسئولية فى إيمان وتضحية وبسالة ، تحملوا أعباء دعوة الناس إلى الحق والخير والمحبة والإخاء الذى يعبر عنه الرسول (ﷺ) فى ندائه العالى يوم فتح مكة : « الناس من آدم ، وآدم من تراب »، وتلاوته قول الله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[1] . [الحجرات : ١٣] .

ويأتى بعد هذا قول الله : « ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيّاً »، أى وكانت النتيجة أن سخر بعضهم من بعض . وتطاول أصحاب المال والغنى الاقتصادى على أصحاب القيم الإنسانية الذين اتبعوا الأنبياء . ولنرجع إلى الآيات السابقة لهذا فى سورة الزخرف لنقرأ قول الله: « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قل : أوَلو جئتكم

---

(١) سيرة ابن هشام ٤ : ٥٤ ــ ٥٥ .

بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » [الزخرف : ٢٣–٢٥] .

السياق واضح . إنه لتأكيد الصراع بين مواقع الترف والاستغلال فى المجتمع وبين مواقع شريعة الله . صراع بين الترف المعتز بما عنده من مال ومراكز قوة ، وبين كرامة الإنسان ممثلة فى القيم الفاضلة التى هى روح الدين ، والتى تنظر إلى الإنسان فى جوهره الواحد دون أن يستوقفها لون بشرته أو موقعه الاجتماعى أو الاقتصادى أو السياسى .. من هذا الإيمان العميق بالله وكرامة الإنسان نستمد طاقة العمل ، ونجعل مادة الحياة فى خدمة الله عن طريق خدمة الإنسان . كل إنسان .

ويعقب الله على هذا بقوله — تثبيتا لرسوله وللمؤمنين —: « ورحمة ربك خير مما يجمعون » ، أى ما أنت فيه من أمر الدعوة إلى الله وإقامة الحياة على أساس من كرامة الإنسان .. كل إنسان ، والصبر على ما تلقى فى هذه السبيل من أذى خير مما جمعوا — وهم فى مواقع القوة — من مادة الترف التى جعلوها أسلحة لاستعباد إخوانهم فى الإنسانية .

الوحدة فى التنوع :

فإذا ما جئنا إلى عموم القصد ، نجد أن نقطة البدء واحدة : الربط أو محاولة ربط المترفين بين الغنى ورسالة الله ، والتعجب من نزول القرآن على رجل ، كان عندهم الصادق الأمين المحمود فى خلقه ، ولكنه ليس صاحب الغنى الاقتصادى ولا يمثل موقع قوة مادية فى المجتمع .. فكيف يستمعون إلى شخص ليس زعيماً فيهم ، وإن كان على هذا الخلق العظيم ؟ .

ويأتى بعد هذ قول الله ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم ﴾ .. ولننظر إلى الآية فى شمولها ، لا على مستوى مجتمع واحد متجانس ، إلى أبعد حدود التجانس ، وإنما على مستوى الإنسانية كلها فى مواردها الطبيعية والبشرية ، فسنرى أمامنا تفاوتاً واضحاً فى توزيع الثروات الطبيعية بين القارات والشعوب ، ولنعد إلى أية خريطة لتوزيع أية ثروة طبيعية أو مصدر طاقة : الذهب ، الفضة ، النحاس ، البترول ، اليورانيوم . سنرى تفاوتاً فى كل شىء . . . توزيع الجبال والأمطار ، خصوبة التربة ، الغطاء النباتى ، عدد السكان . . قل مثل ذلك على مستوى القارات وعلى مستوى القطر الواحد . ولا شك أن فرص الحياة أمام الذين يعيشون فى مناطق الغنى أوسع من الذين يعيشون فى المناطق النائية المنعزلة عن تيار العمران .

ولكن هذا ليس فى القرآن حتماً يفرض على الناس الخضوع له ، ولكنه توزيع يفرض على الناس التعاون والعدل فى نطاقه .

فإذا ما قامت علاقاتهم على أساس من العدل والإخاء الإنسانى أمكن أن تذوب الفوارق بينهم . وإذا ما قامت على التمييز والتفرقة فى أية صورة من صورها تكونت الطبقات وتراكمت المظالم . يقول الإمام الزمخشرى[1] : « إن الله تعالى قاسم المعايش والمنافع . ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة الحرمة بسوء تناولهم ، وهو عدولهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعه » .

وليس من المنطق – عقلا – أن يكون توزيع الثروات الطبيعية بين الشعوب أو بين أجزاء الوطن الواحد توزيعاً حسابياً . . لأمر بسيط ؛

---

(١) تفسير الكشاف ٤ : ٢٤٩ .

هو أن الحدود السياسية من صنع الإنسان يصنعها ثم يقدسها ويعبدها . ولو نظرنا إلى العالم كوحدة ، لكان ما فيه ملكاً للإنسان الذى يعيش فيه . هذا هو المنطق الإلهى الذى نقرؤه فى قول الله تعالى: « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » [البقرة : ٢٩] .

ليست المشكلة إذن فى التوزيع الطبيعى إذا كنا ندرس الموارد ، ولا فى توزيع السلالات إذا كنا ندرس الإنسان ، ولكن فى موقفنا نحن — عدلا أو ظلما — من هذه الموارد ومن إخوتنا فى الإنسانية .

وإذا كنا نسلم بجبرية القضاء والقدر ، فإننا بذلك نسقط حساب الله تعالى . . وكيف يحاسبنا ولا إرادة لنا ؟ . .

لا بد إذن من كفاح بين الخير والشر من أجل إرساء هذه القيم الإنسانية . . وأول مجالات الكفاح هو الفكر الإنسانى ، المصدر الأول الذى ننطلق منه نحو الخير أو الشر . . نحو العدل والإخاء أو نحو الظلم والتفرقة .

العلاقات الاجتماعية :

يأتى بعد هذا قول الله تعالى: « ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا »؛ وقد قال فيها بعض المفسرين ليسخر بعضهم بعضاً فى العمل ، أو ليأمروهم بما يعملون . وقال البعض إن الآية إشارة إلى استهزاء بعض الناس ببعض . . وحرف اللام فى قوله تعالى: « ليتخذ » من الناحية اللغوية هنا يفيد العاقبة . . أى كانت النتيجة أن اتخذ بعضهم بعضاً سخريا .

وهذه هى مادة الاختيار التى يضعنا الله فيها ليرى كيف تستطيع المجتمعات أن تكافح فى سبيل إقامة العدل ، أو ترضى بتراكم المظالم .. وعلى دعاة الحق والمساواة ألا يرهبوا تجمع الثروة فى أيدى الذين يحتلون مواقع القوة ، ويؤيدون منها التفرقة بين الإنسان والإنسان .

وإذا ذكرنا أن هذه الآية مكية نزلت على الرسول قبل إقامته مجتمع المدينة لعلمنا أنها نزلت وقت الضغط على المسلمين فى مكة فى أول قيام الدعوة الإسلامية : مال محدود بين أيديهم ، ثروات متجمعة فى أيدى أعدائهم . المال الذى تملكه قلة من المؤمنين الأغنياء ، كأبى بكر وعثمان أخذوا ينفقونه فى عتق الرقيق المؤمن ، رابطين بين تحرير الإنسان من سيطرة الإنسان ، وتحرير النفس من عبادة المال والشهوة ومواقع القوة ، مؤمنين أن الدعوة إلى الإيمان تتكامل مع الحرية ومع تقديم الطعام لجائع أو الرحمة بمسكين . . وذلك فى قوله تعالى: « فلا اقتحم العقبة ؟ وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة » [البلد : ١١ — ١٨] .

هنا يأتى القرآن مدعماً قيمة الإيمان فى الكفاح من أجل المثل العالية، التى لا تستقيم الحياة الإنسانية بدونها ، وداعياً المؤمنين بالله وكرامة الإنسان ألا يرهبوا تجمع القوة المادية عند الذين يحرمون الإنسان حقه فيقول : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون . . »

أى لا تعظم هذه الأمور فى أعينكم فترهبزها وتنصرفوا عن العمل من أجل الإيمان وكرامة الإنسان .

ثم تأتى الآيات مبينة أن هؤلاء المترفين الذين يعيشون على التفرقة بين الناس هم أصحاب الشيطان وهم الضالون . وفى هذا يقول الله تعالى مباشرة بعد هذه الآية : « ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون .. » ثم يصفهم بأقسى من هذا فيقول : « أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين » ثم يحدد مصيرهم فى وجود الرسول أو بعد هجرته من مكة إلى المدينة فيقول : « فإما نذهبنَّ بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون » ثم يدعوه إلى شدة الاستمساك بالحق فيقول : « فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم » [الزخرف : ٣٦ — ٤٣] .

نوعان من التفاوت :

ولكن فى الأمر زاوية أخرى ، فحتى فى داخل مجتمع عادل — إذا ماسلمنا بوجوده — لابد من تفاوت يرجع إلى عوامل من مستوى ذكاء أو صفات طبيعية تدخل فيها عوامل الوراثة التى لابد للإنسان فيها .

والإسلام يفرق تفرقة واضحة بين تفاوت يحكم به الفرد على نفسه ، إذا قلل — مختاراً — من فاعليته وإيجابيته وتحصيله العلم أو اكتساب الخبرة ، وتفاوت يحكم به المجتمع على الفرد إذا ما وقف فى سبيله ، ولم يمنحه حقه الطبيعى فى الوصول بقدراته إلى آمادها .

فى المجتمع العادل يمكن أن نقبل التفاوت بعد تكافؤ الفرص ،

بينما فى المجتمع الظالم يفرض التفاوت على بعض الأفراد أو الجماعات بسبب التفرقة قبل أن يتيح لهم المجتمع الفرصة .

ذلك لأنه إذا ما توافر عدل اجتماعى ، وأتحنا الفرصة لكل فرد أن يعمل دون عائق من لون أو وضع اجتماعى أو اقتصادى ، ويحصل مايستطيع من علم ويساهم فى المجتمع بقدر مافيه من مقدرة .. فلم يستطع أن ينال فى مجتمعه ماكان يمكنه الوصول إليه لو بذل جهداً أكبر — أقول : إن التفاوت الذى يحصل فى هذه الحالة أمر يمكن التسليم بأنه تفاوت عادل ، جناه الفرد على نفسه برغم الفرصة المتاحة والتوجيه إلى العمل .

ولكن إذا ماكانت العقبات هى النظام الاجتماعى ، وكانت القيود فى أيدى الأفراد وأقدامهم — برغم ماعندهم من قدرات — وأنه لاذنب لهم إلا لون البشرة . . فإن الفروق المبنية على الحرمان أمر لايقره دين ولا تطمئن به حياة مجتمع .

هذا هو الفساد الاجتماعى الذى يؤدى دائماً إلى الصراع الذى قد يتصاعد لهيباً ، أو يسيل دماء .

وحين يدور الحديث عن آيات الرزق مثل قوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » ينبغى أن يكون فى أذهاننا أى أنواع التفاوت هى التى نتحدث عنها .

كرامة الإنسان عند فقهاء الإسلام :

تأسيساً على ماسبق قوله يبدو كيف يؤكد الدين كرامة الإنسان . وأن المظالم التى يوقعها جنس بجنس ، أو لون بلون ، لا يمكن أن تستند

إلى أساس من الدين . فالله يأمر بالعدل ، ويترك للإنسان مجالا واسعاً ليقيم شريعة الحق فى أرضه ، ويقاوم الظلم بادئاً بأول حصونه : الفكر الإنسانى وما يرتبط به من مصالح طبقية أو طائفية أو عنصرية .

وأود هنا أن أذكر نصًّا للإمام الجليل ابن حزم الأندلسى ، وذلك فى ختام دراسته الزكاة . وأهمية هذا النص أنه يعطينا صورة من التكامل الاجتماعى ، وحق الفرد على الدولة والمجتمع كله . يقول : « صح عن أبى عبيدة بن الجراح وثلثمائة من الصحابة رضى الله عنهم أن زادهم فنى فأمرهم أبو عبيدة — وهو قائدهم — فجمعوا أزوادهم فى مزودين ، وجعل يقوتهم إياها على السواء » .

وابن حزم عاش فى منتصف القرن الخامس الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وحدثت صراعات كثيرة بينه وبين معاصريه ، واشتهر بآرائه السديدة التى أنصف بها المحرومين فى المجامع ، وحدد العلاقة بين فئاته وبين الجهاز الحاكم . فيقول : « وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم الزكوات — أى أموال الزكاة — بهم ولا فىء سائر أموال المسلمين بهم »[1] .

ويحدد ابن حزم بعد هذا حق المواطن العادى الذى يعتبر حداً أدنى للمعيشة فيقول : « فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم من المطر

(١) المحلى ٦ : ١٥٦–١٥٩ . والزكوات جمع زكاة والفىء : الخراج والغنيمة تنال بلا قتال . انظر المعجم الوسيط ٢ : ٧١٤ .

والضيف والشمس وعيون المارة » ، ويستدل على هذا بقول الله فى حوار يذكره القرآن عن أهل الجحيم : « ما سلككم فى سقر؟ قالوا : لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين » [المدثر : ٤٢—٤٤] فقرن الله تعالى إطعام المسكين بوجوب الصلاة . ثم ذكر بعد هذا حديث رسول الله (ﷺ) « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث . ومن كان عندة طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس » . وحديث رسول الله : « من كان معه فضل ظهر (أى دابة تحمله) فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له » قال : ثم ذكر من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل . (أى فيما فوق حاجته) .

بل إن ابن حزم ليصل إلى ذرى رفيعة من ذرى العدالة ومنع استغلال الإنسان للإنسان فيفتى بحق الفقير فى أن يقاتل دفاعاً عن الحياة ضد الجوع والعرى ، مستنداً فى هذا إلى ما سبق أن قاله الفقهاء من قبله: «من عطش فخاف الموت ففرض عليه أن يأخذ المال حيث وجده ، وأن يقاتل عليه» ، يقول ابن حزم : « فأى فرق بين ما أباحوا له من القتال على ما يدفع به عن نفسه الموت من العطش ، وبين ما منعوه منه من القتال عن نفسه فيما يدفع به عنها الموت من الجوع والعرى؟ وهذا خلاف للقرآن والسنن والإجماع والقياس » .

فالعدل والإخاء الإنسانى عنده ضرورة حياة . . والتفرقة عنده بين إباحة القتال من أجل الماء ومن أجل الطعام باب كبير من أبواب الظلم قد يؤدى إلى حروب جامحة ، تنفجر فيها الأحقاد . . ولكن

لمصلحة من ؟ إن ابن حزم يؤمن أن دفاع الإنسان عن حقه واجب مقدس ولكن هل من الممكن ضبط البركان إذا تفجر ؟

مقاومة التفرقة ضرورة إنسانية :

من هنا يبدو أن محاولات الإنسانية فى الصعود إلى مستوى الإخاء ، ومقاومة كل أنواع التفرقة العنصرية ضرورة يلتقى عندها الدين والعلم ومصلحة الإنسانية فى أوسع مفاهيمها .

ذلك لأن كرامة الإنسان الحقيقية لا تتوافر إلا إذا أتيحت له فرص العمل وبذل الجهد فى مجتمع يعطيه هذه الفرصة ، دون أن ينفى ذلك حق من يعجز عن العمل ، أو يصاب فى أثنائه أو تقصر موارده عن الوفاء بالتزاماته ، فى أن يعينه المجتمع على أن يحيا الحياة الطيبة .

وما يتبقى بعد بذل الجهد وتكافؤ الفرص والتكافل الاجتماعى من تفاوت ، فالقضاء الكامل عليه أمر فوق طاقة البشر . . وليس من المنتظر فى مجتمع أن يتحول أفراده جميعاً إلى مخلوقات تتشابه فى كل شىء .

الفروق المتبقية بعد التكافل الاجتماعى ، هى الدرجات التى ذكرها القرآن ، لا ظلم فيها . هى نواحى التفضيل التى يمكن أن نقرأ معها قول الله تعالى: « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » .

والعبرة العميقة أن الإيمان بالله — مع تكافؤ فرص الحياة — يزيل من النفوس قسطاً كبيراً من الأحقاد ، ولا يدع محدود القدرة

حاقداً على موهوب ، ولا مسئولا متجبراً على من يعملون معه . وإنما وراء الجهد إيمان يملأ النفوس رضا وإخاء ومحبة . رضاً يأتى بعد بذل الجهد لا قبله ، على ألا يسمح المجتمع لطائفة من أبنائه فى مواقع التوجيه والقيادة أو العلم ، أن تتحول إلى « طبقة » أو « مركز قوة » مستندة إلى أساس من المكانة الاقتصادية أو الاجتماعية أو العصبية العنصرية . وتحاول أن تحتكر خير المجتمع وتحول دون وصول خيراته إلى كل أبنائه .

وبعبارة أخرى لا تحاول أن تنقل عبر الأجيال مكاسب حققتها على أساس من حرمان الآخرين فتزيد إلى التمزق الأفقى فى المجتمع تمزيقاً رأسياً . . تصبح الأحقاد فيه — وراء المكاسب — أمراً موروثاً . . فالطفل لا يولد بعصبية اللون ولكن المجتمع هو الذى يغرسها فيه . وهو يغرسها لما تحقق له من مزايا اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية على حساب الآخرين . والإخاء هنا له مفهومان : أولهما أفقى على مستوى الجيل الواحد ، وثانيهما رأسى على مستوى الأجيال المتعاقبة . الإخاء له اتساعه المكانى وامتداده الزمانى .

١٠

خـاتمة

بعد هذه الدراسة عن الإسلام والتفرقة العنصرية نستطيع أن
النتائج التى انتهينا إليها فى النقط الآتية :

١ — إن الإسلام يدعو أولا إلى العلم والمنهج العلمى القائم على
ظة والتجربة ويحترم النتائج التى توصل إليها البحوث العلمية .
هنا يأتى تقديره لمنجزات العلم فى الوحدة الإنسانية وما يرتبط بها
قاومة للتفرقة العنصرية .

٢ — الإسلام يعتبر الفرد مسئولا عن عمله ، ولا يبنى أية مسئولية
صفة خارجة عن قدرة الفرد كاللون . والإنسان فى الإسلام يبدأ
مع ربه بصحيفة بيضاء خالية من أية مسئولية .

٣ — يقيم الإسلام العلاقة بين الإنسان ومكونات البيئة الطبيعية
أساس من الرحمة والاستفادة الطيبة . ويعتبره جزءاً من مادة
الحياة يرتبط بها ارتباطاً عضوياً لا يعذب حيوانها ، ولا يقطع
عا إلا لفائدة ، ولا يدمر مواردها ، فهى بيته ، والإنسان حريص
بيته . واختلاف اللون بين مكونات هذه البيئة الطبيعية مظهر
الله وليس سبباً لتفضيل كائن على آخر .

٤ — يعتبر الإسلام الإنسانية أسرة كبيرة خلقها الله من نفس
ة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء . واختلاف الألسنة

والألوان إنما هو مظهر من مظاهر القدرة الإلهية لا يرتبط بأى تفضيل أو تمييز . بل إن التمييز — فى المفهوم الإسلامى — معارضة لأوامر الله بالمحبة والإخاء .

٥ — الإسلام يعتبر الأنبياء على اختلاف ألوانهم وشعوبهم إخوة ويدعونا جميعاً إلى هذا الإخاء ، ويصور جهاد الأنبياء والذين اتبعوهم ، استمراراً فاضلا من أجل هدف كبير هو الإيمان بالله وكرامة الإنسان .

٦ — ولا يكتفى الإسلام فى هذا بالتأصيل النظرى ، وإنما يطبق هذا فى الحياة عملياً : فالناس فى العبادة أمام الله سواء ، وليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى وهم فى المجتمع سواء يتزاوجون دون تفرقة فى اللون . وهم فى حقوقهم وواجباتهم الاجتماعية سواء . وهم أمام القانون سواء . وفى فرص العمل والأمن على حياتهم سواء .

٧ — ولا يكتفى الإسلام بأن ينص على هذه الجوانب كلها من الإخاء الإنسانى ، ولا أن يحارب التفرقة العنصرية فى كل مظاهرها ، وإنما يعطينا الأمثلة العملية على هذا من حياة الرسول (ﷺ) وأصحابه والذين اتبعوهم بإحسان . نجد هذا فى الحياة اليومية ، كما نجده عند علماء الإسلام الذين تعرضوا لقضايا السلالات البشرية كالمسعودى وابن خلدون .

٨ — وفى الدراسة التحليلية الإحصائية لذكر البياض والسواد فى القرآن رأينا أن القرآن لا يتعصب لأى لون ولا يفضل لونا على لون وإنما يعاملها جميعاً على أساس واحد كمظهر من مظاهر القدرة الإلهية .

٩ — إن ما جاء فى القرآن الكريم عن التفاضل بين الأفراد إنما هو قائم أساساً على وجوب توفير الفرص العادلة للجميع أولا . . فهو تفاوت بعد تكافؤ الفرص لا قبلها . وهو بهذا تفاوت عادل طبيعى وليس تفاوتا ظالماً .

١٠ — لا يرضى الإسلام - بحال من الأحوال — أن تتحول مواهب الأفراد أو مواقعهم الاجتماعية إلى مراكز قوة يتجمعون فيها على أساس من العنصرية اللونية أو أى مظهر آخر من مظاهر التمييز ، فيضطهدون بقية فئات المجتمع وينقلون هذا إلى الأجيال التالية أحقادا أو فروقاً .

وأختتم هذه الرسالة بقول الله تعالى مبيناً مهمة الرسول عليه الصلاة والسلام نحو الإنسانية : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » [الأعراف : ١٥٧] .

وليس هناك من غل أكبر من التفرقة بين إنسان وإنسان على أساس من اللون . وأدعو الله أن يكون من هذه الكلمات ونظائرها عن الأديان والعلم ، ما يعيننا على الصعود إلى الأفق العالى ، أفق الإخاء الإنسانى حيث لا عنصرية ، ولا تفاضل إلا بالعمل الصالح من أجل الإنسان . . كل إنسان . .

SOME BOOKLETS IN THE SAME SERIES

1) *The Catholic Church and the race question*,
by the Reverend Father Yves M.-J. Congar, O.P. Published in 1953 (3rd impression, 1966).

2) *The Ecumenical Movement and the racial problem*,
by Dr. W.A. Wisser't Hooft. Published in 1954.

3) *Buddhism and the race question*,
by G.P. Malalasekera and K.N. Jayatilleke. Published in 1958.

4) *The race question in modern science*.
A collection of the first ten booklets in this series—all of which had been first published between 1951 and 1953. Published in 1956.

5) *Race relations and mental health*,
by Marie Jahoda. Published in 1960 (2nd impression, 1961).

6) *Race and class in rural Brazil*,
Edited by Charles Wagley. Published in 1952 (2nd edition, 1963).

7) *Racial equality and the law*,
by Morroe Berger. Published in 1954.

8) *Equality of rights between races and nationalities in the U.S.S.R.*,
by I.P. Tsamerian and S.L. Ronin. Published in 1961 (2nd impression, 1962).

9) *The defence of human rights in Latin America (sixteenth to eighteenth centuries)*,
by Sylvio Zavala. Published in 1964.